الدخان فالخبز فالأسلاك الشائكة

بقلم: أحمد سكري

عم بمش... بعدني عم بمشي... والمسافة للملجأ مش قصيرة أبدًا، خاصة لما تركض وعامل الوقت مش لصالحك والخسارة بهالموضوع بالتحديد بعني حياة أو موت أو عالأقل إصابة وممكن تكون إصابة شلل، يعني عاهة مستديمة. بعدنا ما حكينا عن المصير المجهول اللي ممكن الإنسان يقع فيه.
المصير المجهول؟ لأ أبدًا!
يمكن بهداك الوقت ما كنت عم بفكر اني ممكن أخسر البيت اللي ربيت فيه وعشت فيه طفولتي. وما كنت بتوقع انو بيوم من الأيام رح يصير هيك. بالزبط متل ما كان جدي طالع ومش عارف ولا متوقع انو ترك قريته وما عاد يرجع يشوفها.
بس عم بتذكر مشهد تيم حسن؛ الأستاذ علي... مشهد الهروب من القرية بمسلسل التغريبة الفلسطينية... مشهد الهجرة الكبرى بين القرى.
كلمة... كلمة واحدة بس، ممكن توصف شعوري وشعور الشخصية بهداك الوقت: "خوف". هاي الكلمة بتعبر عن كل شي، أو بالأحرى درجات الخوف، لإنو أكيد خوف الأطفال للوصول للملجأ ممكن نسميه ذعر بس خوف الرجل المسن إسمو حزن وخيبة وكسرة نفس... تمامًا متل ملامح وجه خالد تاجا بالتغريبة بنفس مشهد الهجرة.
أكيد جدي كان عم يهرب من قريتو بفلسطين خايف من نفس الأسباب يللي أنا كنت هربان منها بالشام. كتير مرات بسمع من ختايرة كبار انو احنا كنا خايفين عالنسوان والولاد. بالزبط، احنا مش بس كنا هربانين من الموت، احنا كنا خايفين من الفوضى... الفوضى يللي بتطلع كل الوحوش الموجودة فينا وما فيها تطلع بالحالة الطبيعية.
فوضى بسبب صهاينة جايين من خلف البحار خاف منها جدي ع نفسو و ع عرضو، هي نفسها الفوضى يللي كانت عم بتركضني بسبب جاري اللي ساكن معي بالحي.

برجع بقول عن الحالة، ما بتتوصف إلا بكلمة واحدة: الخوف.
بلحظة، بعد مشاهد تلفزيونية كتيرة عن الي صار وعم يصير بسوريا، كانت مكبرات الصوت بالجوامع كفيلة بتعريفنا بالمسمى الحرفي لخراب البيت، يعني الطلعة من بيوتنا. بعد ساعة تحديدًا بلش قصف ما معروف مصدره وجهته، فوضى وبس، ما فيك تتوقع وين الأمان. وبعد أربع ساعات، بلشت رحلة بما يسمى رحلة خراب البيت، صرنا نتنقل من بيت قرايب لبيت ثاني، لنلاقي مكان آمن بس للأسف كنت حس حالي بسيارة وأنا عم بروح لكل بيت وآخد الناس لنطلع على هاي الرحلة، لانه كلنا اتجهنا وصرنا عم نركض لنحمي حالنا بالملجأ اللي كنا مفكرينه هو المكان الآمن، بس للاسف، ما كان في شي آمن. بس قبل ما أحكيلكم لي طلعنا من الملجأ لازم أحكي عن الطريق للملجأ، مشهد كأنه يوم القيامة من ذعر وخوف بوجوه وعيون الناس، بس كل الكلمات والعبارات ما ممكن توصف المشهد، بتركض بس المسافة بعيدة بتركض بس انت بتحس حالك تقييييللل، تقيل بهمك وحزنك وخوفك وذعرك، تقيل بتفكيرك شو بعد رح يصير، تقيل لما تشوف مرة طالعة بلا حجاب ناسية حالها من خوفها، شو في أكبر من الموت؟ ولا شي!!
وأم عالطرف الثاني عم تصرخ أنا نسيت ابني بالبيت!
الأم اللي مستعدة تعطي ابنها الحياة وأيامها وكل شي معنوي أو مادي، بلحظة بتفقد الإدراك وبتركض لتنجو بنفسها، بس يبلش يرجع وعيها بتفطن انو رضيعها مش معها بتصرخ بدي ابني جبولي ابني. هون مش محتاج كتير أدور بذاكرتي عن مشهد مشابه. أول شي خطرلي بس شفت المرا كان مشهد أم سالم كمان

بمسلسل التغريبة وخطر ببالي خلدون أيقونة الطفولة الضايعة بالنكبة. خلدون يللي قرر غسان كنفاني برواية عائد الى حيفا يتركو بالبيت بحيفا ويضيع ويصير اسمو دوف. بتذكر لما ستي شافت شخصية أم سالم صارت تبكي. تاري القصة صارت فعلًا أثناء النكبة ومع أكثر من أم؛ هربت وأخدت المخدّة بدل إبنها.
قال وأنا اللي كنت مفكر انو الدكتور وليد سيف (كاتب التغريبة الفلسطينية) وغسان كنفاني بحكم إنن مثقفين وبدهن ينشروا قباحة المعاناة من جراء اللجوء فخلوا الرواية تدور حول حدث بشع ما بصير إلا بالخيال، بس طلع الواقع يا ستي مش كتير بيفرق عن الخيال.
الأم سنة 1948 وهيي نفسها صفية يللي عالورق وهي نفسها أم سالم عشاشة التلفزيون و÷يي نفسها المرا يللي أنا شفتها بسوريا وقت كنت هربان وقاعد بالملجأ.
أب حامل ابنه عكتفه وعالكتف الثاني حامل هموم وأحزان، تذكر اللي كان يحكيلو اياه جده عن طلعتن من فلسطين. يمكن لإنو الأب هو دائماً يللي بيحمي البيت بحس بالخطر أكثر من أي فرد من أفراد الأسرة وبشوف يللي هنن ما بشوفوه. وأنا بنفس الوقت عم بتذكر كلام الكبار عن تهجيرن بال48 لكل هالمواقف الي ما كنت بتخيلتها تصير معي شخصيا أبدًا، يعني تجسد الخوف بدرجاته وأنواعه.

وصلنا للملجأ، كان مكان مشبع بالخوف مشبع بالذعر مشبع برائحة الموت اللي محاوطة الناس من كل جهة، قعدنا يومين، وبموجز بسيط للي كان موجود، أكل قليل، تدفئة ما في، وبوقت قررت أطلع أنا وشوية شباب نجيب خبز سمعنا انه انقصف الفرن. بس بقصة الحاجة شيخة زيد اللللي حضرتها بأرشيف النكبة، الموضوع كان مختلف شوي لانو مش الفرن اللي انقصف. الشباب يللي رجعت تجيب خبز هيي يللي انقصفت. في شاب اسمو طه، رجع يجيب خبز لأهله اللي هربانين على عين الحوش برا البلد بس شافوه طخوه دغري.

هذا في علم الحرب بسموه تمشيط. انك تدمر كل نقاط القوة البشرية المتبقية عند العدو المنهزم. والقوة او اللي الناس بالمجتمع القروي كانت مفكرتها قوة هي سواعد الرجال وبس. طيب الرجل الأعزل إلا من بارودة انكليزية شو بدو يعمل قدام هالعصابات المنظمة بأحدث الأسلحة والمدرعات.
مهي شو قصة عين الحوش؟ قصتها انو الناس طلع بيناتهن خبر متل ما بتقول الحجة شيخة[1]: هجموا اليهود إطلعوا النسوان والولاد. سبحان الله هو نفس السيناريو وين ما كان، النسوان و الولاد.
بتقول في واحد اسمو سعيد الحديري هزّم مرتو ع قرية الجش ورجع لعنا. مش مهم اذا هو بيتعرض لخطر المهم المرا العرض ما يتأذى.
تمامًا متل ما صار معي بس رحت أجيب خبز لأهلي بالملجأ. يمكن لو سبقت شوي كنت رحت بس انقصف الفرن. يعني فعلًا ألطاف ربنا كانت متجلية جدا بكل مكان رغم كل شي كان عم يصير.

يمكن لإننا منعتبر الحفاظ على الحياة غنيمة، مش مهم أي حياة، حياة اللجوء، النزوح، المخيمات، المهم نجينا أرواحنا. هيك منكون بخير أو هيك منتخيل.

المهم... انتهزنا فرصة هدوء إطلاق النار وقدرنا نطلع من المنطقة، وفجأه لقينا حالنا على الحدود الأردنية من دون أي تخطيط مسبق وحاولنا نفوت على الاردن لأنه كنا بحالة حرب ما كنا متوقعين أو متخيلين انه يمنعونا نفوت. قعدنا حوالي الخمسه أيام على الحدود، قعدنا حوالي خمس ايام بلياليهن على الحدود بالبرد والجوع، كل ما كنا نفوت على الحدود يحطونا بباص ويسكروا علينا ويرجعونا لبرات الحدود بحج' انه احنا فلسطينية سورية وما النا حق اللجوء لدولة ثانية. تعذبنا كتير واحنا قاعدين على الحدود، بلحظه من اللحظات شفت بسه قطعت الحدود وفاتت، قلت معقول صار الحيوان عنده حقوق أكتر من بني آدم؟! وبعد ما يأسنا من دخول الأردن قررنا انه نرجع بس بوقتها ما قدرنا نفكر بالرجوع للبيت لانه بطل في بيت قررنا نرجع للبنان، نفس

[1] شيخة إسماعيل زيد , مواليد 1926, الظاهرية-صفد-فلسطين , أرشيف النكبة

العملية والعذاب تكرر، إلا انه هي المره فتنا وقطعنا الحدود اللبنانية.
دخلنا على لبنان وهون بلشت رحله عذاب ومعاناة جديدة على عكس ما كنا مفكرين انه رح نرتاح بعيدًا عن الدمار والقصف والدم والحرب والتفجيرات. بعدنا عم نحكي عن يلي خسرناه عن كيف هربنا وعن كثير شغلات وأهم شي عن المصير المجهول. لإنو الواقع كان أكثر ألم وتعقيد للفلسطيني اللي لجا للبنان من يلي إله عمر عايش هون. هههه، بتضحك هالمسميات فلسطيني سوري... فلسطيني لبناني، المهم ما في فلسطيني سادة. الفلسطيني اللبناني إلو إمتيازات شوي شوي هاا أكتر من الفلسطيني السوري اللي متل حالاتنا. وكأنه اللجوء فيو تلت نجوم وأربع نجوم ويا ستي خمس نجوم، بس اللي بعرفو ومتأكد منو إنو النجوم بالنسبة لأي فلسطيني هي علامات معلمة بجسمه وذاكرتو عن كل مرحلة من مراحل نكبته المستمرة.

المراجع:

مقابلة مع شيخة زيد